

ابن طباطبا العلوي وجهوده النقدية الدكتور عبد الحميد القط^(١)

كتب الدكتور عبد القادر القط مقالا بعنوان «النقد العربي القديم والمنهجية» بمجلة فصول العدد ٣ أبريل ١٩٨١ ، محاولا تخلص ذلك النقد من آثار بعض الدراسات الحديثة التي يدخل أصحابها إلى موضوعات دراستهم في ذلك النقد . وفي أذهانهم بعض الأفكار النقدية الحديثة ، ملتسمين في ذلك النقد القديم ما يثبت معرفة أصحابه لتلك الأفكار أو سبقهم إليها ، منتزعين بعض العبارات الواردة في ثنايا كتب النقد القديم من سياقها . واضعين إياها في حيز واحد محاولين أن يخلقوا بذلك نظرة شاملة أو متكاملة في النقد لهذا الناقد أو ذاك من القدامى . وفي مثل هذا المنهج خطورة على تراثنا القديم ، والحديث معا ، لأن التراث - مع تسليمنا بأهميته في تكوين ثقافة الفنان ، والناقد معا - وإثراء وجدانهم بتراث أمتهم ، لا ينبغي أن يتجمد ، أو يكتفى به وإنما ينبغي تجاوزه - ما دام ذلك ممكنا - دون أن نعتقد أنه ليس في الأمكان أبدع مما كان . ولا بد أن ندرك أن التراث كله - وليس تراثنا وحده - يجمع بين الغث والسمين ، والصالح والطالح . وإذا اردنا لتراثنا أن يستمر فعلينا أن ندرسه بموضوعية ، تساعدنا على الكشف عما به من كنوز تثرى حاضرتنا وتضيف إليه ، بل إننا يمكن أن نتساءل - مع الدكتور عبد القادر القط - عما سيثبت للزمن من تراثنا المعاصر بعد ثلاثمائة عام . وهل ستقبله الأجيال التالية على علاته ؟ أم ترفض ما تراه غير ملائم منه ، وتبقى على ما تراه صالحا ؟ . ولا يعني هذا الموقف من التراث إزراء عليه ، ولا غضا من شأنه . بل يكمن خلف ذلك الموقف حب والتراث . والحرص عليه ، ويعبر عن ذلك الدكتور عبد القادر القط في مقاله السالف الذكر بقوله «وبعد . فلم يكن القصد أن نررى بما أعطاه هؤلاء النقاد من دراسات فيها كثير من المعرفة الواسعة بتراثهم حينذاك من الشعر والنثر ، وقطنه إلى كثير من أسرار اللغة وألوان تعبيرها ، بل قصدنا إلى الدراسة الموضوعية لكي نضع ما خلفه هؤلاء النقاد في موضعه بالقياس إلى ألوان أخرى من تراث الفكر العربي أكثر إحاطة وأعمق نظرا . وأقرب

(١) نشرت بمجلة الثقافة ، العدد ١٠٧ ، أغسطس ١٩٨٢ ص ٢٦ وما بعدها.

إلى مناهج البحث العلمى ، وأن نبه إلى المخاطر التى يمكن أن يقع فيها الناقد الحديث إذا أسقط على هذا التراث ثقافته الحديثة ونظريات النقد المعاصر ، محاولاً أن يجمع من تلك الأشئآت المتناثرة مذهباً نقدياً متكامل الجوانب ، إذ لا بد لمثل هذا الناقد أن يتعسف التأويل فى كثير من الأحيان ، ويختار من هنا وهناك شذرات مما يمكن أن يقيم بها نظريته ، متجاهلاً ما يمكن أن يناقضها أو يتعارض معها . ولا يمكن أن ننسب إلى عصر من أخصب عصور الحضارة العربية «نظرية» تبنياها على آراء جزئية متفرقة فى وقت كان هناك للعرب «نظريات» و «مذاهب» كثيرة شاملة وكاملة فى الفقه والتفسير، والكلام والنحو وغيرها من العلوم^(١)..

وقد تعرض الدكتور عبد القادر القط لابن طباطبا العلوى فيمن تعرض لهم من النقاد العرب القدامى، وتحدث عن جوانب من القصور فى نقده . فنشر الدكتور عبد الحميد محمد العيسى فى مجلة الأزهر مقالا بعنوان «ابن طباطبا فى نقده الابداعى»^(٢) . وما يثير دهشة القارئ أن المقال يبدأ من منطق الدفاع عن التراث، وبصورة عفا عليها الزمن فيقول: «ودعاً لتلك الدعوات التى تصدر عن بعض المعاصرين بين الحين والحين ، ويرردها البعض بقصد أو بدون قصد ، وهى - بأى مقياس - لا تخلو من الغمز واللمز لهذا التراث العربى العريق ، وأن قال أصحابها : أنهم لا يقصدون بها الإزراء أو الانتقاص من هذا التراث !! ..

ومن بين تلك الدعوات ما نشر مؤخراً فى مقال حول «النقد العربى القديم والمنهجية» . وما يثير الدهشة والغرابة كذلك أن العيسى لا يذكر اسم الدكتور عبد القادر القط صاحب المقال ، ولا يشير إليه من قريب أو بعيد . بل يكتفى بالقول عنه : «واعتقد أن صاحب المقال بخبرته النقدية الطويلة يتفق معى النخ» ..

وسوف نتجاوز عن مثل هذه الأمور ، ونتناول بعض الحقائق التى أصبحت شائعة فى مجال الدراسات الحديثة فى النقد العربى القديم . مثل : الفصل بين الشكل والمحتوى الذى عرف به ذلك النقد ، والذى تبلور فى قضية اللفظ والمعنى ، وهو فصل كانت له خطورته على الأحكام النقدية ، ومثل تركيزه على العبارة أو الجملة واشتغال أصحابه

(١) دكتور عبد القادر القط «النقد العربى القديم والمنهجية» مجلة فصول العدد ٣ أبريل ١٩٨١ ص ٣١ .

(٢) دكتور محمد عبد الحميد العيسى «ابن طباطبا فى نقده الابداعى» مجلة الأزهر ، الجزء السادس السنة الرابعة والخمسون ، ص ٩٠٣ .

بالتعليم . وقد دار النقاد القدامى فى حلقة مفرغة عدة قرون . وأصبحت آراؤهم اجتهادات تعوزها المنهجية بالمفهوم الصحيح . وقد أشار إلى ذلك كله الدكتور عبد القادر القط - فى ما أشار إليه - فى مقاله . كما تعرض إلى تحديد مفهوم الشعر فى النقد العربى القديم ، فى بحثه القيم «مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى» وحدد هذا المفهوم فى عدد من المباحث أو السمات هى: الأصالة ، واللفظ والمعنى ، والايجاز والاستواء ، والواقع والواقعية ، وغنى عن البيان أن الشعر كان يتحدد فى إطار تلك المباحث الجزئية .

ولكن ذلك كله لا ينفى اجتهاد النقاد العرب ، ولا يمحو كل فضل لهم ، وهو ما نبه إليه الدكتور عبد القادر القط فى مقاله . ولكن المنهجية تقتضى أن يوضع النقد العربى القديم فى إطار عصره ، وألا يحمل ما لا يطبق . وقد تنبه الدكتور العيسى إلى تلك الحقيقة ، فقال أن : «موروثنا النقدى له ظروفه وملابساته ، وله مقاييسه ومبادئه، فإذا تعاملنا مع هذا الموروث يجب ألا تفارقنا هذه الحقيقة ، فلا نحمل هذا التراث ما لا يطبق ، ولا نطلب من صانعى هذا التراث - وهم مبدعون فى جملتهم - أكثر مما قدموه أو طرحوه» ، ولكنه أغفلها عند التطبيق .

ونتوقف بعد هذه المقدمة عند ابن طباطبا العلوى (ت ٣٢٢هـ) ونقده الابداعى المزعوم الذى يحمله تلك المكانة التى يحلها أياها صاحب المقال ، حتى أنه يفضل على ابن المعتز صاحب كتاب «البدیع» . زاعما أن الأخير اتخذ من البلاغة وحدها أسسا فى صناعة الشعر ، وهو رأى لا نوافقه عليه ، لأن ابن المعتز كان يحدد مفهوم المذهب الجديد الذى عرف «بالبدیع» الذى زعم المحدثون من الشعراء أنهم ابتكروه ، وبخاصة وأن أغلبهم لم يكن عربيا فدافع عن العرب . وحدد ذلك الجديد بدقة ، وظل رأيه فى هذا الشأن يتردد فى كتب النقد من بعده ، مثل كتاب الموازنة للآملى. وعمله هذا يقع من النقد فى الصميم ، وليس عملا بلاغيا صرفا .

قلنا أن الدكتور العيسى خالف فى التطبيق ، ما وافق عليه نظريا . ومصادق ذلك قوله عن ابن طباطبا أنه : «ظاهرة أدبية ونقدية تكاد تكون فريدة فى عصره ويكفى أنه لم يسبق إلى ذلك الأساس الفنى المحكم الذى وضعه بخبرته وذوقه مستلهما دراسات السابقين وصولا إلى صناعة الشعر» فليس ابن طباطبا ظاهرة فريدة . وليست آراؤه بمثل تلك القيمة التى يراها الدكتور العيسى. وسوف نستعرض عملية الابداع الشعرى كما

يتصورها ابن طباطبا ليتضح لنا أنها آراء فجة ولا قيمة لها على الإطلاق : كما يتضح من قوله : « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكرة نثرا ، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقها ، والوزن الذى يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يروقه أثبتته ، وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فإذا كملت له المعانى ، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت فيها ، ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ، ونتجته فكرته ، فيستقصى انتقاده ويرم ما وهى منه ، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ، وإن اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعانى ، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول ، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول ، نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن ، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه ، وطلب لمعناه قافية تشاكله » وهذا الكلام يعنى أن عملية الابداع فى الشعر تتخذ الخطوات التالية :

١ - وضع الشاعر للمعانى التى يريد أن يصوغها فى قصيدته فى عبارات نثرية ، قبل أن يصوغها شعرا .

٢ - إعداد الألفاظ المناسبة التى تطابق تلك الأفكار بعد أن وضحت لديه بعد صياغتها النثرية السابقة .

٣ - بعد الفراغ من اختيار الشاعر للألفاظ والمعانى ، عليه أن يختار الوزن والقافية الملائمين لها .

٤ - ولا مانع فى أثناء ذلك أن يثبت ما قد يتصادف أن يكون قد نظمته من أبيات الشعر إذا وجدها تتفق والمعانى التى اختارها .

٥ - وعليه بعد ذلك أن يربط بين القوافى والمعانى الملائمة لها ، على ألا يقوم بترتيب أبيات القصيدة فى تلك المرحلة (المتقدمة من العملية الابداعية للشعر) ، بل يوردها كما اتفق له نظمها حتى ولو كانت تختلف مع ما قبلها .

٦ - تأتى بعد ذلك كله مرحلة الترتيب ، وذلك عند اكتمال المعانى التى يريد الشاعر أن يصوغها فى قصيدته شعرا ، وعندما تكثر لديه الأبيات التى نظمها (أو بعبارة أخرى

عندما يجد أنه قد انجز محصولا وفيرا من المعانى والأيات) . وفى مرحلة الترتيب تلك توضع آيات القصيدة فى نظام يجمع ما تشئت منها .

٧ - وتتلو تلك المراحل وتتمها مرحلة الانتقاد التى تنحصر فى استبدال . لفظة مستكرهه بأخرى نقية ، أو نقل معنى من بيت إلى بيت آخر إذا وجد الثانى أفضل من الأول ، أو تغيير قافية بأخرى .

ولا يخفى أن الابداع الفنى لا يمكن أن يتحقق بتلك الكيفية التى تنفصل فيها مراحل الابداع الفنى ، وتتعاقب بصورة يغلب عليها ذهن الواعى ، فى حين أن العملية الابداعية عملية معقدة ، يسهم فى تشكيلها الوعى واللاوعى معا ولا ينفصل اللفظ عن المعنى فى أثنائها هذا الانفصال، ولا يمكن - أيضا - أن ينفصل الوزن والقافية عن التجربة ككل . ولذا يقول أحد الباحثين مؤكدا أن عملية الابداع الفنى لا يمكن أن تنفصل ، أو تفتت بمثل تلك الصورة التى تفقدها وحدتها : «انتهينا فى فصل سابق عن «عملية الابداع» إلى أن تفتت هذه العملية إلى مراحل معينة يفقدها وحدتها وكيبتها وحيويتها .. فتشريح فعل الابداع إلى أجزاء يؤدى فى النهاية إلى قتله، أو إلى رسم صورة ثابتة جامدة له لا تعبر عن حقيقته الدينامية»^(١).

وليس من المبالغة القول أن الشعر لا يمكن أن يبدعه شاعر على طريقة ابن طباطبا ، بل وليس من الشطط القول بأنه لن يكون شعرا عندئذ وعندما يقال إن ابن طباطبا طبق مقياس «الصناعة» على عملية الابداع الشعرى ، دون أن يفتن إلى الفارق الكبير بين عمل الصانع والشاعر ، يكون ذلك القول صحيحا ومما يؤكد ذلك قوله : «ويكون كالنساج الحاذق الذى يفوف وشيه بأحسن التفويف .. وكالنفّاش الرقيق الذى يضع الاصباغ فى أحسن تقاسيم نقشه .. وكناظم الجواهر الذى يؤلف النقيس منها والشمين الرائق ، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها فى نظمها وتنسيقها ، وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتى فيه بالكلام البدوى والفصيح لم يخلط به الحضرى المولد». وقد يقال إن ابن طباطبا لا يقصد «بالصناعة» إلا الجانب الفنى الذى يضيفه الصانع باعتباره جهدا إبداعيا . ولكن هذا القول ليس إلا حسن ظن فحسب ، لأن تصويره السابق لعملية الابداع الفنى ، التى تبدو كل مرحلة من مراحلها مستقلة عن الأخرى ، يكشف عن

(١) دكتور أحمد عيسى الابداع فى الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٩ ص ١٢٧ .

سوء فهم لتلك العملية الفنية المعقدة التي لا يمكن أن يكون العقل وحده أساسها ، أو بعبارة أخرى لا تتم بوعى كامل من الفنان .

وننتقل إلى موضوع ثانٍ أثاره صاحب المقال وهو موضوع الوحدة العضوية للقصيدة ، التي يرى أن ابن طباطبا سبق إليها أصحابها . فيقول : « .. ومما يجب تسجيله لابن طباطبا عنايته بالوحدة الفنية للقصيدة ، بما يحقق الانسجام بين معانيها ، والالتحام بين أفكارها ، فلا تراها ممزقة الأوصال ، ومهلهلة المعاني » .. ويبالغ فيجعل ابن طباطبا أول من دعا إلى الوحدة العضوية في القصيدة التي دعت إليها مدرسة الديوان ، وهي دعوى عريضة لا تثبت للتمحيص . وبخاصة إذا فهمنا عبارة ابن طباطبا على وجهها الصحيح يقول ابن طباطبا : « وأحسن الشعر ما ينظم القول فيه انتظاما يسبق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله . فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ، نسجا ، وحسنا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ودقة معان ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً على ما شرطناه في أول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا ، كالاشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم لانتقاض في معانيها ، ولا وهى في مبانيها ولا تكلف في نسجها تقتضى كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها مفتقراً إليها . فإذا كان الشعر على هذا المثال سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها راويه ، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه اضطراراً يوجه تأسيس الشعر »^(١).

وترد كلمة المعنى في النص السابق بمعنى الموضوع في إطار القصيدة الطويلة أو بعبارة أخرى بمعنى الغرض ، كالغزل ، أو الرثاء أو الفخر أو الوصف أو ما شابهها . بحيث يخرج الشاعر من موضوع إلى موضوع خروجاً لطيفاً ، كما قال ابن طباطبا في أول كتابه عيار الشعر . كان ينتقل من الغزل إلى المدح ، ومن المدح إلى الشكوى ، وقد عرف هذا الانتقال بالتخلص : « فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة ، يتخلص من الغزل إلى المدح ومن المدح إلى الشكوى ومن الشكوى إلى الاستمache ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفياض والنوق ، ومن وصف الرعود والبروق إلى وصف

(١) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق محمد زغلول سلام ، دار المعارف الاسكندرية ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

الرياض والرواد ، ومن وصف الظلمان والأعيار إلى وصف الخيل والأسلحة ، ومن وصف
المقاويز والقيافى إلى وصف الطرد والصيد ، ومن وصف الليل والنجوم إلى وصف الموارد
والمياه والهواجر والآل ، والحرايبى والجنادب ، ومن الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف ،
ومن الاستعانة والخضوع إلى الاستعتاب والاعتذار ، ومن الإباء والاعتياص إلى الاجابة
والتسمح بالطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون
متصلا به ومتمزجا معه^(١) وكل ما يطلبه ابن طباطبا فى نصه السابق هو الانتقال من غرض
إلى الآخر بصورة غير فجائية حتى تبدو متصلة بما قبلها ، يقول : «ومن الأبيات التى
تخلص بها قائلوها إلى المعانى التى أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك ،
ولطفوا فى صلة ما بعدها بها فصارت غير منقطعة عنها ما أبدعه المحدثون من الشعراء»^(٢)
وهو ما يعنيه بالتخلص . حقا يحاول ابن طباطبا أن يكشف عن أن الرابطة المنطقية والمعنوية
بين شطرى البيت غير متحققة^(٣) ولكنه لم يكن يعنى «الوحدة العضوية» بمفهومها الحديث ،
بل ولا نظن تلك الوحدة قد خطرت له ببال . ويبدو لى أنه يقصد بوحدة النسيج ما عرف
بالاستواء أو عدم التفاوت فى الصياغة اللغوية لأبيات القصيدة . ولعل هذا هو ما جعل
الدكتور شوقى ضيف يتحرز وهو يتحدث عن وحدة القصيدة فى نقد ابن طباطبا ،
فيقول : «وكانه تنبه للوحدة العضوية ولم يقل تنبه لها بالفعل : فيقول : «وكان ابن طباطبا
تنبه فى دقة إلى ما رده - ولا يزال يردده - النقد فى عصرنا عن فكرة الوحدة العضوية
فى القصيدة ، بحيث تصبح عملا محكما»^(٤) . ويتضح رأيه الصريح فى قيمة كتاب «عيار
الشعر» من قوله : «وقد يكون الكتاب عاما مثل «عيار الشعر» لابن طباطبا ، ولكن حين
نقروه نجده لا يكاد^(٥) يتجاوز مشكلة اللفظ والمعنى ، وبعض مسائل بيانية وبلاغية» .

ويظهر ذوق ابن طباطبا النقدى فى صورة لا تسمح له بأن يحتل تلك المكانة الرفيعة
التي يراد لها أن يتبوأها فى تاريخ النقد العربى القديم . فهو عندما يتناول بالنقد بعض
الأبيات الجيدة ، يزعم بأنها رديئة ، لمجرد أن الشاعر أبعد فى الخيال أو بعبارة أخرى
فى المجاز . فيذكر قول المثقب العبدى فى ناقته :

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤) دكتور شوقى ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ طبعة ٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ص ١٢٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٢ .

تقول وقد درأت لها وضيئى أهذا دينه أبدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى على ولا يقينى

مسبوفا بقوله : «فمن الحكايات الغلقة والاشارات البعيدة قول المثقب العبدى فى وصف ناقته» . ويعقب على البيتين بقوله : «فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول : والذى يقارب الحقيقة قول عنترة فى وصف فرسه :

فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة ونحّمحم^(١)

والواقع أن بيتي المثقب العبدى فى ناقته رائعان ، ويصوران ما يتمتع به من إحساس مرهف دقيق، أتاح له أن يعبر عن أحاسيس ناقته التى تربطها به ألفة وعاطفة صادقة ، وأن يصور اشفاقه عليها من رحلاته المضنية إلى ممدوحيه ، ولا يقل البيتان جودة عن بيت عنترة . وقد قدم الدكتور طه حسين لأبيات «المثقب» العبدى فى ناقته بقوله : «إنما أقف بك عند هذه الأبيات لأنها خليقة بأعظم الاعجاب وأقواه حقا» ثم يورد الأبيات الثلاثة الآتية للشاعر :

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوة آهة الرجل الحزين
تقول إذا درأت لها وضيئى أهذا دينه أبدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال أما يبقى على وما يقينى^(٢)

وسوف لا نورد تحليل الدكتور طه حسين كاملا لتلك الأبيات ، ولكننا نكتفى ببعضه وهو قوله.. «أما أنا فأرى أنه من أروع ما قال الناس ، لا فى اللغة العربية وحدها ، بل فى غيرها من اللغات أيضا»^(٣) ليتضع لنا مبلغ إعجابه بتلك الأبيات .

ومن الأمثلة الأخرى على سوء تقديره للشعر ما نراه من غضه للقيمة الفنية للأبيات التالية :

أومت بكفيها من الهودج لولاك هذا العام لم أحجج
أنت إلى مكة أخرجتني حبا ، ولولا أنت لم أخرج

(١) المرجع نفسه ص ١٤١ .

(٢) دكتور طه حسين ، حديث الأرباء ، ج ١ طبعة ١٢ ، دار المعارف ، القاهرة ص ١٦٩ .

(٣) نفسه ص ١٧٠ .

ويقدم لهما بقوله : «ومن الأيماء المشكل الذى لا يفهم ، وقد أفرط فى حكايته قول الآخر» ثم يعقب عليهما بقوله : «فهذا الكلام كله ليس مما يدل عليه إيماء ولا تعبر عنه إشارة ..»^(١) وموقف الناقد من البيتين الأخيرين يدل على أن حكمه إما مستمد من غيره - وهو الأرجح - أو حكم ينبىء عن ذوق نقدى متواضع لا يؤهله لنقد النصوص الشعرية . وسوف نرى ذلك التعليق فى كثير من كتب النقد القديمة ، وكأنه حقيقة لا يأتيتها الباطل .

ويدفعنا هذا إلى الحديث عن مفهوم الصدق الفنى لديه ، وبخاصة وأن كلمة الصدق تتكرر عنده^(٢) بمعان مختلفة ، فقد يعنى الصدق مراعاة منازل المدوحين: «فيخاطب (الشاعر) الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وأن يخلطها بالعامية. كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به. ولكل طبقة ما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من قوله فى وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله فى تحسين نسجه وابداع نظمه»^(٣).

وهو صدق غير فنى ، لأنه غير نابع من صدق أحاسيس الشاعر تجاه مدوحه . وقد أصبحت تلك المسألة من المسلمات فى النقد العربى القديم . وقد أشار إلى هذا الدكتور عبد القادر القط فى فى مقالته القيمة «النقد العربى القديم والمنهجية» . كما يرد «الصدق» عنده بمعنى مختلف وهو يتحدث عن التشبيه ، إذا نرى أن التشبيه الجيد يكون قريبا من الواقع والحقيقة . ويزداد صدقا إذا : «اتفق فى الشئ المشبه بالشئ معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتؤكد الصدق فيه وحسن الشعر به»^(٤). فكلما كانت أوجه الشبه بين المشبه والمشبه به كثيرة يكون تشبيها جميلا وصادقا^(٥) وفى هذا إغفال لوظيفة التشبيه الحقيقية وهى التعبير عما يشعر به الشاعر. بغض النظر عن التطابق مع الواقع .

(١) عيار الشعر ص ١٤١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٠٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٤) المرجع نفسه ص ٣١ .

(٥) المرجع نفسه ص ٣٦ .

وهكذا يصبح الصدق عدواً للخيال ، أو ضابطاً له بحيث لا يطلق الشاعر لخياله العنان ، ويتضح هذا من قول ابن طباطبا تعقياً على قول جنوب أخت عمر ذى الكلب :

فأقسمت يا عمرو لو نبهاك إذا نبها منك داء عضالا
إذا نبها ليت عريسة مقيتا ، مقيدا نفوسا ومالا
وخرق تجاوزت مجهوله بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار به شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا

فتأمل تنسيق هذا الكلام وحسنه ، وقوله مقيتا مقيدا ثم فسرت ذلك فقالت نفوسا ومالا ، ووصفته نهارة بالشمس ، وليلا بالهلال ، فعلى هذا المثال يجب أن ينسق الكلام صدقا لا كذب فيه، وحقيقة لا مجاز معها فلسفيا كقول القائل :

وفى اربع منى حلت منك اربع فما أنا دار أبها هاج لى كرى
أوجهك فى عينى أم الريق فى فمى أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى^(١)

ويكون التشبيه صادقا ايضا ، إذا اتبع الشاعر فى صوغه أساليب القدماء ، أو قاس عليها ، ويتحقق ذلك الصدق بشرط خاص. وهو المزج بين المعانى فى التشبيهات التى يحدثها الشاعر ، وعدم الاختصار على الأخذ دون إضافة . يقول ابن طباطبا : «الشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعانى فى التشبيهات لتكثر شواهدا ، ويتأكد حسنهما ، ويتوقى الاختصار على ذكر المعانى التى يغير عليها دون الابداع فيها والتلطيف لها لئلا يكون كالشئ المعاد المملول»^(٢).

ولا يخفى أن ابن طباطبا استمد أغلب مفاهيمه عن الشعر من ابن قتيبة ، وبخاصة تقسيمه للشعر إلى حسن اللفظ وأهى المعنى . وصحيح المعنى رث الصياغة ، وبارع المعنى فى المعرض الحسن . فهذا كله مأخوذ من تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب عند ابن قتيبة^(٣). بل إننا نجد بعض أمثلة ابن قتيبة واردة فى «عيار الشعر» مثل قول الشاعر:

(١) المرجع نفسه ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٦ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٤ .

ولما قضينا من منى كل حاجة
وشدت على حذب المهاري رحالنا
وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

وقد كان ابن قتيبة يمثل بهذه الأبيات للشعر الذى .. «حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت
فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى»^(١). والغريب أن ابن طباطبا يعتبر المعنى غاية الشعر،
ومن ثم لا تشفع للشعر جودة لفظه وحسن صياغته مادام بدا فقيرا فى المعنى. ومن ثم
يحكم على أبيات رائعة بأنها واهية تحصيليا ومعنى مثل قول جرير:

أن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا^(٢)

وهى أبيات يوردها ابن قتيبة كذلك^(٣). كما يورد ابن طباطبا كذلك البيتين التاليين ،
ويعييهما ، لضالة ما يحملان من معنى.

فياحسنها إذ يغسل الدمع كحلها وإذا هى تذرى الدمع منها الأنامل
عشية قالت فى العتاب قتلتنى وقتلى بما قالت هناك تحاول^(٤)

وهو ما يدل على تأثيره بسابقه تأثرا لا يسمح له بالاعتماد على ذوقه الخاص . ويكشف
عن اتباعيته النقدية ، ومحاولة إخفاءها مما يؤدى إلى اضطراب عبارته وهو يعبر عما عبر
عنه سابقوه كابن قتيبة ، الذى صاغ عبارته بايجاز بينما أسهب هو فى التعبير عن الفكرة
نفسها فقال : «ومن الأبيات الحسنة الألفاظ المستعذبة الرائقة سمعا ، الواهية تحصيليا
ومعنى. وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التى وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها .
والعبارة عما كان فى الضمير منها ، وحكايات ما جرى من حقائقها دون نسج الشعر
وجودته ، واحكام رصفه واتقان معناه»^(٥) فلنا ندرى ماذا يعنى بنسج الشعر على وجه
الدقة إن لم يكن يعنى حلاوة اللفظ، وقدرته على التأثير . وتفتقد أحكامه الحاسمة النقدية ،
عندما يعلق على قوافي بعض الأبيات معلنا إعجابه الشديد بها كقول الشاعر:

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ١ تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة. ١٩٦٦ ص ٦٦ .

(٢) عيار الشعر ص ٩٩ .

(٣) الشعر والشعراء ص ٦٧ .

(٤) ، (٥) عيار الشعر ص ٩٩ .

وَأَرَاكَ تَفَرَّى مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفَرَّى
وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ حِينَ تَنْجُوهُ أَلَا
أَبْطَالُ ، مِنْ لَيْثٍ أُمِّي أَجْرِي^(١)

فيقول : «فقله : «ثم لا يفري» و «أبي أجرى» حستان في موقعهما»^(٢). كما يبدى إعجابه بالبيت التالي:

كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ مِنْ بَعْدِ الْفِ عَذَلْتُ النَّفْسَ قَبْلَ عَلَى هَوَى لِي

بقوله : «فقله هوى لي لطيفة الموقع»^(٣) وتصبح عباراته «عجبية الموقع» ، و «لطيفة الموقع» ، و «حسنة الموقع» تعبيراً آلياً عن إعجابه بقوافي عدد من الأبيات، لا ينبىء عن ذوق نقدي رفيع^(٤). ويتضح عجزه عن الاحساس بالقافية المتمكنة من قوله تعقيباً على البيت التالي :

دَوْمِي أَدَمَ لَكَ بِالْوَفَاءِ عَلَى الصِّفَا إِنِّي بِمَهْدِكَ وَائِثِقُ فَتَقَى بِي

«فقله فتقى بي» لطيفة جداً يستدل بها على حذق قائلها بنسج الشعر»^(٥).

ولكن ابن طباطبا - برغم ذلك كله - يتنبه إلى أن العرب كانت تمدح ببعض الصفات الجسدية كالجمال والبسطة وايضا بصفات أخلاقية معنوية ، ويورد من الأخيرة الكثير مما يدل على أن المدح العربي كانت تغلب عليه المعنويات لا الماديات^(٦). مما يجعل ما ذهب إليه قدامة ابن جعفر ، في نقد الشعر من الحديث عن المدح بالصفات النفسية ليس بالأمر الجديد أو الذى لم يقطن إليه أحد قبله^(٧). ولو استعرضنا المدائح العربية فسوف يتضح لنا أن المدح بالمعنويات أو الهجاء بها ، كان هو الغالب على هذين الفنين ، أعنى فنى المديح والهجاء .

(١) المرجع نفسه من ص ١٢٥ وانظر عيار الشعر ، تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع . دار العلوم للطباعة والنشر . الرياض المملكة العربية السعودية ص ١٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٨ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٩ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٧) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، طبعة ٣ تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٨ ص ٦٥ ،

وقد أحس ابن طباطبا العلوى بمحنة الشاعر المعاصر له والتي تتمثل فى التقليدية الغالبة على الشعر العربى عندئذ . وعبر عن ذلك فى فقرة توسع فيها على بن عبد العزيز الجرجاني ، وأضفى عليها من وعيه النقدي . وبمقارنة تعبير كل منهما عن محنة الشاعر فى زمنهما يتضح لنا الفارق الكبير بين الحاسة النقدية عند كل منهما . فالجرجاني . قد يكون قد أطلع على عبارة ابن طباطبا ، ولكنه خلع عليها وعيه العميق والدقيق بالمشكلة ، فقال : «ولو أنصف أصحابنا لوجد يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالاكثار ، لأن أحدهم يقف محصورا بين لفظ ضيق مجاله ، وحذف أكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه . ومعان قد أخذ عفوها وسبق إلى جيدها ، فأفكاره تثبت فى كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فإن وافق بعض ما قيل ، أو أجتاز منه بأبعد طرف قيل : سرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان ، ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه ، ولامر بخلده ، كأن التوارد عندهم ممتنع واتفاق المواجه غير ممكن ! وإن افترع معنى بكرا ، أو افتتح طريقا مبهما لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب ، وألذه فى السمع ، فإن دعاه حب الاغراب وشهوة التوق إلى تزيين شعره وتحسين كلامه ، فوشحه بشيء من البديع ، وحلاه ببعض الاستعارة قيل هذا ظاهرة التكلف ، بين التعسف ، ناشف الماء ، قليل الروق وأن قال ما سمحت به النفس ورضى به الما جس قيل : لفظ فارغ وكلام غسيل ، فأحسانه يتأول ، وعيوبه تتمحل ، وزلته تتضاعف وعذره يكذب»^(١) . ويقول ابن طباطبا فى هذا المعنى : «والحنّة على شعراء زماننا فى أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة . فإن أتوا بما يقصر عن معانى أولئك ، ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول ومع هذا فإن من كان قبلنا فى الجاهلية الجهلاء ، وفى صدر الإسلام ، من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم فى المعانى التى ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء ، واقتخارا ووصفا وترغيبا ترهيبا»^(٢) .

ومن ثم يكون ابن طباطبا ناقدًا لا خطورة له فى تاريخ النقد العربى القديم حتى ولو وضعناه فى مقابل قدامة بن جعفر (ت ٣٧٧هـ) باعتبار أن الأخير يمثل ذوقا غير عربى فى حين يمثل الأول الذوق العربى غير المتأثر بالثقافات الأجنبية ، فقدامه - برغم كل

(١) على بن عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد الجاوى ، مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٥٢ .

(٢) عيار الشعر ص ٢٢ ، ٢٣ .

ما قيل فيه مدحا أو قدحا - أكثر نضجا بالقياس إلى ابن طباطبا ، ومن هنا فإن الدكتور عبد القادر القط تعرض للأخير في مواضع قليلة من مقاله في مجلة فصول ، ليضعه في موضعه الصحيح من حركة النقد العربي القديم ، وبخاصة وأن الدكتور عبد القادر القط كان من أوائل من أرخو لذلك النقد،^(١) بل وعلمه للطلاب في الجامعة سنوات طوالا. فعلى إذن أن نضع تراثنا النقدي القديم في ضوء عصره ، وأن ندرك أنه لا يمكن أن يتطابق في مفاهيمه ، مع مفاهيم النقد الحديث لأن ذلك مستحيل ، وضد طبائع الأشياء ، مع العلم بأن هذا لا يقلل من قيمة ذلك النقد في نظرنا كتراث له حسناته وسيئاته .

(١) انظر كتابه مفهوم الشعر عند العرب الذي نشره بالإنجليزية في بحث للدكتوراه